شخصية السجان في الرواية التدمرية

براءة باطوس، د. عبد الكريم ضاهر

قسم اللغة العربية– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة إدلب

ملخص البحث:

شكلت أدبيات السجون حقلاً خصباً للأدباء والمفكرين، يبحثون في أغوارها ليستخلصوا آفاقاً جديدة ونتائج أدبية ثرية، وقد تناول البحث شخصية السجان في الرواية التدمرية إذ إنها شخصية محورية فيها، وطرح ما يتخفّى وراء تصنيع هذا النموذج اللاإنساني، وما يستخدمه من سياسات في ترويض السجين، وما يمر به من مراحل ليصل إلى الصورة النمطية المقدّمة في الرواية.

الكلمات المفتاحية: أدب السجون، الرواية التدمرية، السجان، السجين.

the character of the jailer in the Palmyra novel

Abstract:

The literary prison forms formed a fertile field for the writers and thinkers to seek for its depths to take out new horizon and wealthy literary results. The survey tackled the character of the jailer in the Palmyra novel، because it is a pivot character in it. The writer dealed with what hide behind this inhuman model and what the jailer uses in taming the prisoner. It deals with stages to reach the ideal picture which is presented in the novel.

Keywords: The literary prison، The Palmyra novel، The jailer، The prisoner.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في تسليطه الضوء على شخصية السجان بشكل مركَّز، والطابع النمطي لها، وكيفية تصنيعه ليصبح ذيلاً يأتمر بأمر منظومة تسيّره كيفما شاءت، حتى يصل إلى درجة مرَضِية من الوحشية، إذ إنّه يُعطى سلطة مطلقة في التحكم بمصائر السجناء بعد أن يجُرَّد من إنسانيته، ويتصرّف بشكل مغيّب هدفه إرضاء أسياده ومطامع نفسه.

شخصية السجّان:

إن فهم أدلجة السجان التدمري كما تم تقديمها في روايات السجن الصحراوي ليست بالأمر الصريح والسهل، بل احتاجت إلى كثير من البحث والقراءات المعادة والربط بين العلوم على اختلافها من أدب ونقد وعلم اجتماع ونفس، ثم الغوص في أعماق الشخصيات الروائية والقيام بعمليات التفكير العليا لاكتشاف مدلولات الشخوص التي تفسر النموذج الإنساني اللاإنساني لشخصية السجان في الرواية التدمرية.

فهي شخصية أساسية تمثل أحد قطبي الصراع في الروايات السجنية، محورية مثيرة البواطن في الرواية التدمرية على وجه الخصوص لما تتصف به من وحشية غير معهودة، وما تبديه من تقلبات مرضية تسد بها النواقص، وتفرّغ من خلالها العقد النفسية والأمراض المتأتية من المجتمع المحيط والانحرافات النفسية التي تعاني منها الشخصية الإنسانية، وهذا يتم عن طريق وضعه في منطقة المواجهة الساخنة المباشرة مع القطب الآخر (السجين) وفق سياق مرسوم مسبقاً. والقسوة عند السجان مرتبطة بتموضعه في شبكة التفاعلات الاجتماعية؛ فقد نجده أحياناً في مواقف لا يتصف بالقسوة أو ربما لديه عواطف رقيقة في أي شيء آخر عدا تعامله مع السجناء لأن البطش والاستبداد غير مرتبطين بفطرته إنما هما وليدا أدلجة سلطوية وتفاعل اجتماعي وضعه مع خصم يقابله في فضاء غير متوازن على كلّ الجوانب، ولأنّه وُضِع في موقع الندية المبرمجة خضع للصيرورة المسيرة وفق التصنيع الأجندوي لأن "القسوة في أصلها حالة اجتماعية أكثر من كونها سمة من سمات الشخصية، وبالتالي يتصرف بعض الأشخاص بقسوة ووحشية إذا

ما وعوا في محيط ينزع سلطة الضغوط الأخلاقية، ويضفي شرعية على التجرد من الإنسانية"[1] وهذا ما يبرر لا فطرية هذه الصفات لأنها تتولد وتتنامى نتيجة معطيات واقعية يعيش فيها الإنسان ويتفاعل معها:

"في البداية لا تطلب الإدارة من العناصر الجدد القيام بأي عمل على صعيد التعذيب أو الإعدامات، بل يتركونهم حوالي الشهر فقط يحضرون ويشاهدون ما يجري و هم وقوف ودائماً يكون الجدد متهيبين من الإمساك بالكرباج أو العصا وحتى بعد مضي الشهر وعندما يبدؤون بمشاركتهم تكون ضرباتهم خفيفة ومرتبكة في الإعدامات يوقفونهم على مبعدة من المشانق ما إن تبدأ عملية الشنق حتى يكونوا قد اقتربوا من بعضهم أكثر ، اصفرّت وجوههم بعضهم يرتجف ويغضّ النظر والبعض الآخر يصاب بتقلصات في المعدة ما يجعله يتقيأ.

المساعد والعناصر القدماء يرون كل ذلك فيتعاملون معه وكأنهم لم يروا شيئاً، مع حفلة الإعدام الثانية والثالثة يسترخون يتجرؤون يصبحون طبيعيين كباقي زملائهم.

الرقيب سامر "الأعوج" كنت أراقبه دائماً عندما حضر أول حفلة إعدام تقيأ بشدة حتى خلت أنه سيخرج أمعاءه. جلس على الأرض، وقد غطى عينيه بيديه إلى نهاية الإعدامات ساعده اثنان من زملائه على النهوض وقاداه من تحت إبطيه إلى خارج الساحة.

آخر حفلة إعدام حضرها كان نشيطاً جداً، بيده عصا طولها أكثر من متر، يمازح زملاءه وعلى وجهه ابتسامة دائمة، عند الانتهاء من آخر وجبة إعدام وقف أمام أحد المشنوقين وأخذ يؤرجحه، وضع العصا على الأرض آخذاً وضعية الملاكم جاعلاً من الجثة المعلقة كيس رمل أخذ يوجه لها اللكمات صاح على الوحش:

- وحش ولا وحش تعال لهون.
- ركض الوحش لعنده.
- نعم سيدي.

- شوف هالكلب صار له ربع ساعة معلق ولسا ما مات شدو من رجليه خليه يرتاح"[2]

يشير الحدث الروائي إلى أن السلطة توجه العناصر الجدد عن طريق وضعهم في فضاء قاتل للقيم الإنسانية للانضمام إلى القطيع القاتل للوحدة التي إن اختارها سيكون على الضفة الصراعية الأخرى، لذلك كان التسلسل التراتبي لمراحل تحول شخصية السجان الروائية يطرح نمط الترويض البشري الذي تتعرض له على الرغم من ثبات الحدث عن طريق عرض تكلفة السلوك لمصير النقيض والمثيل، فيتحدث الروائي عن الإعدامات بدلالة تكثيرية، ثم يشير إلى وجود النمط المثلي لرفع قوة الجذب، ويترك بعدها المجال للبحث النفسي في التخبطات الصراعية بين الإنسانية ودفع تكلفتها فيختار النمط الجمعي المسلوخ عن ذاته وينضم إلى الركب المروَّض.

هل تراه يضرب المشنوق تعبيراً عن ضربه نفسه العاجز عن ردعها؟ أم إنه يفرغ شهوة مرضية تكونت لديه؟ لعلنا نرجح الخيار الأول لأنه بعد انتهائه من الضرب يطلب من البلديات المسارعة في مساعدة المشنوق لتنتهي مرحلة الاحتضار وبالتالي نهاية رحلة العذاب السجني التدمري. وفي استجلابه راحة الخصم (السجين) نلحظ بقايا الإنسانية المقَمقَمة التي قد تتلاشى، وتختفي بعد حين.

تتسم شخصية السجان بالتناقض واللاتوازن الإنساني النابعين أصلاً من شرخ إيديولوجي نفسي لديه نما وازداد نتيجة تفاعله الاجتماعي في فضاء معادٍ مليء بالبطش والاستبداد يتضح في الفضاء الروائي الذي يبين كيف أثر وغيّر عالم الشخصية الداخلي؛ حيث يوضع السجان في مكانة صورية ذات سلطة مطلقة من طرف ودونية من طرف آخر (مرؤوسيه) فهو واسع الصلاحيات أمام السجناء إذ إنّهم موضوعون محل ذل وخنوع، وهذا ما يعزز تمادي الطرف المقابل، وقيام علاقة تناسبية بين الطرفين في شبكة التفاعل الاجتماعي، فكلما ازداد خوف السجين وضعفه سال لعاب النفوس المريضة بشكل أكبر، وابتكرت أساليب تعذيبيّة جديدة:

"توقف مأخوذاً للحظات هل ما يراه حقيقة شبان صغار في العمر يرتدون الملابس العسكرية المبرقعة يعذبونهم بحماسة يريدون قتلهم من هؤلاء العسكر ما الذي يعمي عيونهم عن رؤية الألم يشبهون أولاد جيرانه وحارته يافعون يصادفهم في الأسواق ويلمحهم من شرفة عيادته يتمشون على الرصيف أمام السرايا شبان أقوياء يلاحقون رجالاً عريانين ضعفاء وجوهم ناحلة وأنفاسهم متقطعة عظام صدورهم ناتئة عيونهم غائرة سواعدهم الملفوفة بالشاش حملوها معهم من أقبية المخابرات".[3]

لقد بيّن روائيو سجن تدمر المفارقة بالتقاطع بين شخصية السجان والإنسان السوي بالتقاطهم ملامح وتفاصيل يعيشها الإنسان في الروتين اليومي، ويعيشها السجان نفسه خارج أسوار السجن، لكن الاحتكاك المكاني الظرفي يحتم وجود علاقة ضدية بين مسحوق وساحق.

كما أن شخصية السجان على اختلاف بروزها في الرواية (محقق ، مدير سجن، طبيب سجن، رقيب، مساعد، عسكري،...)، والسلوكيات المتشابهة تحيلنا إلى بعد نمطي (واقعي / روائي) تقوم عليه سلبية النسق السجني بما يحتوي عليه من ظلم وقهر واستبداد و وأد واستلاب من خلال درامية صراعية؛ الند الأول فيها السجان بفكره، ووجوده الزمكاني، والإيديولوجي، واضطراباته، وتماثله أيضاً، هذا التماثل الذي يشكّل نقطة استغراب وتوقّف تفكير، فهو إنسان يطابق السجين في التكوين البشري والاحتياجات والغرائز الفطرية، وربما قابله يوماً أو سارا مصادفة في شارع واحد:

"هؤلاء الذين يتفننون في تعذيبنا ما الذي يدفعهم إلى ذلك؟ ما السر الذي يجعل قلوبهم تمتلئ نحونا بعاصفة هوجاء من الحقد الأعمى؟ ما السحر الذي يأخذهم فيجعلهم في غيّهم يعمهون. نحن لا نعرف حتى أشكالهم فمن أين جاء هذا الحقد الأسود الذي يتحول إلى حمم براكين متفجرة من أين يستمد الطغاة جبروتهم كيف تكون لهم هذه القلوب التي لا تعرف رأفة أو رحمة؟"[4]

يتكرر معنى التساؤل السابق في جميع الروايات التدمرية بلا استثناء غير أن دلالته لا تقتصر، كما أي استفهام، على طلب المعرفة فقط، بل فيها من التشارك الفكري

للطرح الجماعي، وتحريض الوعي على البحث عن الإجابة، وطريقة التعامل معها، وتكرار السؤال في الروايات التدمرية إنما يحيل إلى تكرار التجربة، واتساع حيثياتها، وتنوع مداخلها ومخرجاتها:

هل للجلادين ضمير؟! هل يخزهم ضميرهم إذا خلوا إلى أنفسهم ونكسوا على رؤوسهم؟! أليسوا بشراً تجري في عروقهم دماء؟! أما هزهم منظر الساقطين من السماء شهباً معلقة على ألواح و دسر؟![5]

ببساطة إنها شخصيات مليئة بالرغبات المريضة والنزوات اللاطبيعية، تنتابها الحيرة، وتقع فريسة للتخبّطات، قد تصل درجة الاضطراب واللاتوازن فيها إلى الخَدَر الشعوري بسبب مجموع المآسي التي تجري أمامها أو على أيديها، وفي رأس هرم الأولويات لديها حماية النفس، وإرضاء نهم الطمع، وغريزة التسلط.

صناعة النموذج النمطي للسجان:

إن الشخصية الروائية النمطية للسجان تبين كيفية تصنيعه، والآلية المتبعة من قبل السلطة عن طريق رسم ملامح الشخصية، والانفعالات الصادرة عنها، ودورها الروائي الثابت والمتنامي والمتقلب بحسب احتياج الموقف، والتغيرات التي تطرأ عليها سلوكياً ونفسياً. فبعد وضعه على الخط الصراعي الحدثي العمودي لأنّه يتمتع بالسلطة والصلاحيات يتم "إلغاء الشعور بالذنب من خلال "إسباغ المشروعية على التعذيب وجعله عملاً اقتصاصياً يكتسب دلالة الواجب النبيل من خلال وضعه على رصيد الدفاع عن القضايا الكبرى السامية التي لا يجوز أن تهددها الضحية وأمثالها"[6] ولا قضية سامية أكثر من حماية الوطن الأم والحاضن لكن هنا يكون الوطن متمثلاً بالسلطة، وكل من يمس السلطة أو حتى يحاول المساس بسيادتها تطلق اليد في التعامل معه ويصبح مباحاً لكل أنواع التعذيب التأديبي الذي قد ينتهي بالموت. وحجة ذلك (كما يبرمج السجان) محاولة الآخر تخريب البلاد ونشر الرعب والذعر والإساءة للوطن الراعي ووضع العقبات في طريق تقدمه وتطوره ... لكن أي وطن؟ الوطن/السلطة بالتأكيد بصورة منفصلة واقعياً متماهية مظهرياً ، ومن هنا يبدأ الصراع في نفس الشخصية بين إنسانيتها التي تنازعها

عن التعذيب وبين واجبها الوطني النبيل والسامي للحفاظ على البلد من المخربين وعند هذه النقطة تبدأ مرحلة حسم القرار الاختياري، فتسكت مشاعر تأنيب الضمير ونزاع الإرادة، ويتم تحويلها إلى مشاعر تفانٍ في التعذيب لصون القضية من أي محاولة تجرُّؤية:

"الجلادون في سجن تدمر العسكري لا يقيمون للخير وزناً ولا يعيرون انتباهاً لكرامة كريم أو كبر مسنّ أو ضعف مريض أو حرمة بريء مسكين فهم قساة غلاظ عتاة وأسيادهم يمدحونهم في الغي ويزينون لهم عمل الشر والفساد سلبوا إرادتهم وشوهوا أفكارهم ووجهوهم إلى ما يريدون من أغراض دنيئة" (7)

ويتابع في مكان آخر ليطرح التساؤل السجني الشائع نفسه:

"وهذا الحقد الرهيب على المعتقلين الأبرياء ما الذي أثاره فيهم؟ أجبت نفسي بحسرة ما أثاره إلا عقيدة بل عقائد باطلة فاسدة باطنية مكتومة أخفاها أهلها، يخافون عليها من نور الشمس وحرارة الحق ولا مهرب".(8)

إن اندماج اللاحقة مع سابقتها يوضح أن شخصية السجان تقوم بمهمة "أن يحرس تبرير القرار وحيثيات الإجراء ضد الوعي المفارق أو ما نسميه ثقافة فارقة"(9) دون التفكير في هذا الوعي وتبني الفكر المضاد له فالتماهي بالقطب الآخر جعل منه منظومة لا واعية تتحرك بشكل آلي أو بالمعنى الأصح تروض وفق ما ترتئيه المنظومة الواعية التي تصنعه والتي تأتمر بأمر منظومة واعية كبرى عالمية:

"كان أبو أيوب واثقاً كل الثقة من أن ثمة لجنة يهودية خفية هي التي تدير–من وراء الستار– كل الفواجع الرهيبة التي تنزل بنا في هذا السجن.. وكان يقول: إنه من غير المعقول أبداً أن يكون هذا الجلف البليد أبو نفخة هو الذي يقرر وينفذ هذه المآسي والأعمال التنكيلية ومذابح الإعدام الرهيبة.. إن هذه الجثة المنفوخة لا يختلف ببلادته وتفاهته عن أي كيس تبن. ولذلك فإنه من المستحيل أن يكون صانع هذه المآسي

الوحشية، من التفنن في أعمال التعذيب، إلى ترويعة يوم الثلاثاء حيث يختار عدد كبير أو صغير من السجناء اختياراً عشوائياً ويؤخذون للإعدام"[10]

إن المنظومة الكبرى تخطط لأهداف معينة ترتئيها، وتسعى لتحقيقها من خلال أذرع تتمثل في السلطات المتحكمة في البلاد، هذه السلطات تفعل ما يخدم مصالحها التي رسمتها أساساً بعد معرفة واعية بالسوسيولوجيا العربية من تركيب اجتماعي وطبيعة علاقات وأنماط تفاعل البشر تبعاً لثقافاتهم، وأكثر ما يسعون وراءه، فترسم سياستها القائمة على التراوح بين الإعطاء والمنع كي يشعر الإنسان بلذة السطوة ومأسوية الفقد، ويعمل وفق الأجندة المرسومة له كي يحظى بما يصبو إليه:

"كيف سأقول إن المهندس الذي كان يمكن أن يصبح عالماً ويصنع لبلده ولأمته مجداً قد اغتيل وهو في الرابعة والعشرين..؟! إنها آلات موكلة بقتل البلابل وذبح العصافير".[11]

إن المنظومة الواعية الأولى (الصغرى) تمنهج ترويض الإنسان منذ لحظة الولادة كي يعتقد بعقائدها، ويقتنع بفكرها، دون أن يعي، أو قد يعي أحياناً، لكن لا مهرب أمامه، فهو مَدين لها بالمنصب والمال والنفوذ والقوة، وبالتالي إمّا أن يصبح كائناً معرضاً لخطر النفوذ السلطوي، أو يصبح صاحب نفوذ (مهدِّد). وسيرورة الحدث الروائي توضح انتقاله بالمربع السيميائي من فضاء العجز إلى فضاء السلطة ما يجعله يحتاج إلى تفريغ العدوان المتراكم في نفسه نتيجة السيطرة عليه سلوكياً وفكرياً حيث إن " أقصى حالات التماهي المتسلط تأخذ شكل الاستلاب العقائدي ونقصد بذلك تمثل واعتناق قيم النظام والانضباط والامتثال وطاعة الرؤساء الكبار وهي قيم تخدم –مما لا شك فيه– مصلحة ذلك المتسلط لأنها تعزز مواقعه وتصون مكتسباته"[12] :

"الجلاد الأكبر يطبق بعصا إمبراطوريته على يده.. ينتشي.. يشعر بزهو حار.. يدير ظهره للجثث المبعثرة.. يخرج على إيقاع تحيات الإجلال من قبل جلاديه الصغار"[13].

إن الاستلاب العقائدي الفكري الذي يطغى على الذات الكليّة للسجان تصل درجة الانسحاق في ذات السلطة العليا، فيسير وفق هواها، ويعمل لمصالحها، ويصل بتبعيته إلى حد الخضوع والانصهار في بوتقتها.

وينتج عن هذا التطابق تماثل رؤيوي لا واعٍ يغيّب العقل والقيم الأخلاقية لذلك تفرغ العدوان النفسي المتشكل لديه نتيجة الشرخ الداخلي في شخصيته المتأتي من معاناته المستمرة من التهديد السلطوي من المنظومة العليا والمتحكمة بمقاليد الأمور ما يجعله يعاني من الخواء الداخلي غير الممتلئ من خلال تحويل مشاعر الخواء إلى مشاعر سلطوية تنتشي بتقزيم السجين (الضحية) ووضعها موضع عجز لتغطية عجزه هو:

"كأننا نحن المعتقلين في سجن تدمر أموات في حساب الأحياء أو أحياء في حساب الأموات نودع النهار وراء الليل والليل وراء النهار فلا نستقبل في كل صباح إلا القضبان والجدران والزبانية العتاة يمنون علينا باللقيمات القليلة ويعذبوننا ويعتدون علينا في كل وقت وفي كل مناسبة قد أدمنوا معاملتنا بالكرباج والعصا والقسوة والعنف منهم مثابرون على إيذائنا دون كلل أو ملل ودون تفكير أو نظر كأنهم آلة ناطقة بالأذى والشر يعملون دون عقل أو فكر لا يفهمون ولا يسمعون (صم بكم عمي فهم لا يبصرون) الزبانية من الكبير المنتفش حتى لصغر المنتفخ المغرور"[14].

إن التغييب الفكري العقلي المنعكس على السلوك الذي يجعل السجّان يحس بنشوة الضمير من جهة وغريزة التسلط من جهة والتراكمات النفسية السابقة من جهة أخرى يدخل السجان في حالة السادية المرضية التي يتحول فيها التعذيب من الهدف إلى التلذذ والتشفي لإخضاع السجين وتقزيم إرادته:

"حفلات التعذيب باتت في صلب توقعات الرقم 77 اليومية يفتعلها الرقيب أو غيره من العسكر تبدو كأنها انصياع لهوس استحوذ عليهم يستجلبون به المتعة لبث الهلع في نفوس المساجين بإسالة دمائهم والتسلي بإذلالهم وكلما تعالت توسلات المرضى والجرحى زادوا من عياراتها مع التفنن بها"[15]

ونرى سادية السجان عندما يحدث امتزاج بين طلب المعلومات والرغبة الخالصة في الإيذاء وإيقاع الألم والرعب ويصل الأمر أحياناً إلى نسيان سبب التعذيب، فيظل التعذيب هدفاً ووسيلة وغاية مستقلة:

"ولم يخطر ببالي أن أساليب التعذيب مثل هذه التي تتبع معنا يمكن أن تكون عن عفو خاطر أو أن تكون وليدة لحظتها بل قد تيقنت أنهم يجلسون لها الليالي يخططون ويفكرون وربما يتسابقون من يأتي بطريقة لم يسبقه إليها أحد ومن تكون طريقته هي الأشنع والأكثر تأثيراً وربما دخل بينهم الشيطان نفسه على هيئة بشر فراح يقترح عليهم وسائل من وسائله فيردونها عليه مستهزئين (قديمة هات غيرها)"[16]

إن تسابق الشخصيات النمطية المتعددة على الفوز بمقام من هو الأكثر شيطانية هو نفس الفوز برضا السلطة والحصول على الامتيازات وإطلاق اليد في الصلاحيات، والغاية التي تبرر الوسيلة غاية دنيئة تم الوصول إليها بوسيلة أكثر دناءة:

"حصيلة لأحاديث طويلة وممتدة على فترة طويلة، عرفت هنا أن الشباب –كما يحبون أن يسموا أنفسهم– أن السبب الرئيس للتحقيق معي لدى جهات أمنية متعددة هو الصراع الشرس بين هذه الأجهزة، وقد شرحوا لي مع استخدام الكثير من التعابير السياسية ما يسمونه "جوهر النظام السياسي في البلد" وآلية عمل الأجهزة، هذه الأجهزة التي جعلها رئيس الدولة تتنافس على شيئين أساسيين أولاً إثبات ولائها المطلق له، وثانياً الحصول على أكبر قدر ممكن من المكاسب والامتيازات".[17]

طبعاً تسبق حالة السادية المرضية مرحلة التربية على العنف الموجه ضد العدو، لكن "التربية على العنف بذريعة توجيه العنف ضد الأعداء تتسبب في ارتداد العنف على المجتمع نفسه"[18] لأن هذه السلطة تعمد إلى شحن السجان بأفكار وقناعات مفادها أن السجين هو العدو، وكل من يخالف السلطة هو عدو لله والوطن، وواجب مكافحته. إضافة إلى مرحلة تهميش وإذلال من قبل كل منصب سلطوي تجاه من هم أدنى منه، وهذا ما يفسر عمليات الإذلال وكسر النفس في الخدمة الإلزامية بحجة تعزيز القدرة على التحمل في أوقات الحرب، فهل يستطيع الإنسان أن يتحمل بوعيه وتمرينه

على ضناء العيش أم بإذلاله؟ وهل من يتلقى الإهانة من العدو كمن يتلقاها ممن من المفترض أن يحموه ويدافعوا عنه؟ بالتأكيد لا "فالعلاقات تحكمها في الغالب الأعم علاقات التبعية ذات الجذور الراسخة في قوى العصبيات وتنازعها على السلطة والثروات"[19] لذلك نرى الرتب العسكرية لديها حقد دفين تجاه العسكر الآخرين وتحمل في نفسها ضغينة وعدوانية تجاههم:

"لاحظت أن لهم جميعاً نفس الوقفة تقريباً الساقان منفرجتان قليلاً الصدر مشدود إلى الوراء اليد اليسرى تتكئ على الخصر اليد اليمنى تحمل إما عصا غليظة أو كبلاً مجدولاً من أشرطة الكهرباء أو شيئاً مطاطياً أسود يشبه الحزام عرفت فيما بعد أنه قشاط مروحة محرك الدبابة ينظرون إلينا وإلى عناصر الأمن نظرة فوقية تحمل استخفافاً بعناصر الأمن ووعيداً مبطناً لنا"[20]

إن النسخة الكربونية المصنعة في هذه البقعة البشرية تماثلت في الحقد والرؤية لأنها اتحدت في المنطلق، ويظهر التشفي وإخراج هذا العدوان عند التعامل النِّديّ بين الرتب العسكرية:

"تقدم نحو العقيدين بينما راحت أنفاس العميد تختنق نزع رتبهم العسكرية وهوى بعصا على رقبة الأول فجثا كأنه ضرب على كتفه لا على رقبته وقدم له الحرس وليمة من الفئران الميتة. أما العقيد الثاني فراحت الصراصير تنبع من وجهه وأذنيه وعينيه وهو يأكل شرفه العسكري"[21]

تمتلئ شخصية السجان بالمرض الحقدي تجاه السجناء عامة والرتب العسكرية خاصة بحجة الخيانة؛ فخيانة من هو ضمن السلك السلطوي يجب أن تعاقب بحدة أكبر وبحزم أكثر، لكنه في الحقيقة يغطي على ضياعه الذاتي بإنزال الآخر إلى الدونية، ويجد ذاته بافتراسه ضحيته على اختلافها، بيد أن وجوده لا يتعدى كونه سرابياً يتلاشى عن أي صفعة واقعية وخلوة نفس لأنه مجرد وهم يُقنِعُ نفسَه بفعاليته وصحته.

ومن السياسات المصنعة للإنسان المروض بشكل عام والسجان بشكل خاص زرع الخوف والرهبة والدونية ووجود الرقيب في نفس الإنسان، يلازمه، ويرافقه في أوقاته كلها وإحساس وجود الرقيب من أخطر الأحاسيس التي تساعد على هدر الإنسان لأنه يبث الخوف والفزع في النفس إلى حد كبير (كمن يكون في بيته، فيخفض صوته إن تحدث بالأمور السياسية أو عن السلطة؛ لأن العرف الشعبي العام يقول "الحيطان لها آذان")، ويجبره على عدم التجرؤ لرفع سقف المطالب والطموح والتفكير، لذلك نرى التسلسل الحدثي لتطور شخصية السجان يضعه بعد مروره في المراحل السابقة موضع السلطة، ويكون خاوياً من الأنا، ويحتاج إلى إشباعها، وتنميتها، بعد دعسها تحت أقدام مرؤوسيه "إن الجلاد في سلوكه العدواني وتفجر ساديته بحاجة ماسة إلى الاطمئنان على قوته وسطوته الذاتية اللامحدودة. وتتناسب هذه الحاجة إلى الاطمئنان للسطوة المطلقة طردياً مع الإحساس الدفين بالتهديد والخواء الداخلي، والعجز واللاقيمة. ينزل الجلاد السادي بضحيته ما يخشاه على وجه الدقة في ذاته"[22] وهذا ما يفسر ممارسات السجان على السجين منذ لحظة الاستقبال الأولى في سبيل التوق إلى الذات ورحلة البحث عنها، ولا يجد ضالته إلا بإنزال الطرف المقابل منزل الدونية واللاشيء وبالعودة إلى الحديث عن الرقيب نجد تبرير الروائي لشخصية السجان وعرض الحرب النفسية التي تعاني منها والتخبطات الإنسانية التي تعتريها:

"كان ذلك في بداية عام 1981 هفت نفس أحد السجناء على كأس شاي فناوله الحارس الكأس التي بيده، لمحه أحد زملائه من الحرس الجواسيس ووضع تحت المراقبة تبين أنه يتساهل مع المحابيس! كيف؟ كأس شاي في فترات التنفس أو يسمح لمريض أو كسيح أن يبقى في مهجعه ولا يذهب للتنفس. بعد شهر من المراقبة عقدت للحارس المتساهل محكمة عسكرية داخلية. أدين أعدم وعلقت جثته (داخل غرفة الذاتية) ليشاهدها كل الحرس!"[23]

وتعرض الروايات التدمرية نموذج السجان الطيب وهو ضئيل الظهور في الرواية ويكون في مرحلة ماقبل أو ما بعد تدمر:

"وفي الركعة الثانية كانت الطمأنينة قد تمددت فوق غشاء القلب، خاصة أن أحداً من الحراس لم يقطع علي خلوتي، ولم يباغتني (بسنجة) بندقيته. رفعت صوتي قليلاً، وأنا اقرأ: (من المؤمنين...) لم اكد أنهي هاتين الكلمتين، حتى سمعت صوتاً خلفي يكمل: (صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر) أكمل العسكري الآية، ولم يفعل شيئاً، تراجع بعد ذلك إلى مكانه، فانداحت في قلبي موجة من السرور والسكينة، أكملت صلاتي كما أشتهي، وعدت بعدها إلى السرير، اقترب مني العسكري ذاته، وسألني عن اسمي، فقلت له:

- إياد
- إنتا الدكتور إياد أسعد
- إي...إي..
- أنا كنت مع المجموعة الي فتشت بيتك مشان القنابل والسلاح... مالقينا ببيتك شي.. طمن.. لا تخاف... خليك ثابت...

لم أشك أن الذي خاطبني قبل قليل ليس عسكرياً من جلادي النظام، بل اعتقدت أنه ملاك بعثه الله من السماء، لكي يزيد من صمودي، ويرتقي بي إلى جبال التحدي... الصمود في التحقيق يحمل إمكانية الإفراج ولو بعد حين؛ هذا ما كنت أمني فيه نفسي"[24]

في المقطع السابق مكان الحدث هو مستشفى كان ينزل به السجين جراء التعذيب الواقع عليه في أقبية التحقيق التي مر بها قبل نزوله في سجن تدمر، أما في سجن تدمر فلا وجود للسجان الإنساني لأن "السجان الإنساني لا يخدم في تدمر، فدورة الحياة الجهنمية في حبسهم هناك تتطلب أناساً آليين مجردين من القلوب يدارون بآلات التحكم عن بعد، وكيف يضرب إنسان أخاه إن لم يكن مغمض العينين، معدوم الإنسانية"[25] والسبب في ذلك يتضح في الروايات التدمرية بإنهاء صورة السجان الطيب بطريقة مأسوية كارثية وبوقت زمني سريع يأخذ طابع الانتهاء والاستمرار، فينتهي وجوده

واقعاً لكن أثر النهاية وطريقتها تبقى مستمرة لتأخذ دور المعادل الموضوعي لمفهوم العبرة لدى غيره من الجلادين:

"اليوم استدعى رئيس السجن رئيس مهجعنا ياسر إلى مكتبه. خلف المكتب كانت هناك صورة معلقة على الحائط لرقيب من الشرطة العسكرية معلق على حبل المشنقة باللباس العسكري الكامل. هذا الرقيب كما سمعت، كان في سجن تدمر أوائل افتتاحه بعيد المجزرة وكان يساعد السجناء فأمسكوه وأعدموه وعلقت صورته إنذاراً لمن تسول له نفسه من الشرطة والرقباء الذين سيأتون فيما بعد".[26]

يتضح مما سبق أن المطلوب هو "إرهاب الناس كلهم وإجبارهم على أن يقوموا بأنفسهم باختزال حياتهم ونواياهم وتطلعاتهم غير المرغوب فيها لكيلا يواجهوا المصير ذاته"[27] ويترتب على ذلك أن السجان يخضع لقاعدة "السلوك تحكمه توابعه ونتائجه" وسنراها مرحلة تشاركية عند السجين والسجان (لذلك سنتحدث عنها كل في القسم المخصص له)، أما بالنسبة للسجان التدمري فيتحرك الفكر لديه من المعطيات المشاهدة ليزرع يقينية مفادها أن تكلفة السلوك المعارض /الرافض لما تريده السلطة (الرمز) ستكون كارثية لا محالة في أبسط نتائجها فالوسط التدمري لا بسيط فيه، ولا يقبل أنصاف الحلول، لذا نجد السجان يسعى باستمرار إلى حماية توازنه النفسي، وإثبات ذاته بإسقاط الآخر(السجين)، بالإضافة إلى البحث الدائب عن الحفاظ على سلامته والدفاع عنها وإبعاد أي اشتباه يمسه أو يجعله مصدراً للشكوك وسلوكيات التجنب تقتضي تجنب السلوك لتجنب السلوك المضاد المقابل النتيجي، فتجنب التمرد أو التطاول هو تفادي للعقوبة والاشتباه والوضع على القائمة السوداء غير محمودة العواقب مسحوبة الامتيازات السلطوية التي سبق أن تمتع بها؛ "فالجلاد في تحويله الآخرين إلى كائنات ملحقة بكيانه، لا حول لها ولا كثافة كي تشهد على سطوة كيانه هو، وتثبت لها كثافته وامتلاءه ومنعته هو. بهذا وحده يحسم مشاعر القلق والتهديد الدفين والعائم"[28] لأنه باستمداده هذه القوة يثبت أناه وموجوديته المقموعة، وحين ترضى السلطة عنه فيتمتع بصلاحيات سلطوية مادية:

"وهجم علي جلاد بحجر كان يحمله بيده فأخذ يضربني على رأسي والدم يتفجر بين يديه وهو يصرخ هازئاً أحمر يا جبس"[29]

هذه العبثية التعذيبية المفرغة للعدوان الداخلي عند السجان تساعده في إيجاد أنويته الضائعة من خلال إيقاع الألم بالسجين؛ فالألم يعَدُّ أثراً وطالما شكل السجان هذا الأثر فهو موجود يؤثر بالآخر ويجبره على الاعتراف بهذه الموجودية وتتكرر في المشهديات التي تجمع بينه وبين نده في جميع الروايات التدمرية وقد تكون دون أي سبب، إلا سبب تعديل المزاج الذي يحتاجه أحد الجلادين، كذلك يؤدي تضافر أساسَي (السلطة والمال) دوراً في رفع الاستعداد لدى شخصية السجان إلى مرحلة اللاوعي المنحرف المرضي لنخلص بذلك إلى أن "السجان الشرير هو إنسان ضعيف يرغب في النجاة من القمع، ولكنه لا يجد وسيلة غير التماهي بعدوان المتسلط إنه إنسان مقهور تخلص من مأزقه"[30]، وبتخلصه من هذا المأزق ارتكب عدداً من الجرائم يفوق الجرائم المرتكبة التي يكافحها باستخدامه كأداة مغيبة ذهنياً لفرض قبول السلطة القمعية:

"إنهم يحمون نفسهم بإيقاظ قوى الشر النائمة في أعماقهم! تأكدت أن الوحوش ليست كلها وحوش متشابهة هناك وحوش أنيابها أطول مخالبها أحد أشداقها أوسع قفزتها أعلى وفي النهاية تأكل الوحوش بعضها"[31]

كذلك نرى أنَّ تدرُّجَ التأثير يكون من خلال ربط الدفاع عن السلطة بالقضية (الوطن) من خلال تماهي الوطن مع السلطة التي تفعل ما تفعله لأنّها تخاف على أبنائها من الضياع، لذلك تحاول جاهدة ردهم إلى جادة الصواب، وهذا طبعاً من منظور السجّان المغيَّب:

"يعني مية حيوان أجو جداد بدن بطانيات يالطيف شو بتصرف عليكن الدولة وبتدفع دم قلبها مشان أولاد ... متلكن"[32]

ثم يسير التدرج في الإشارات الروائية إلى الإيحاء باستمداد السلطة مشروعيتها من الدين، والتركيز على هذه النقطة لتقوية الدائرة المنطقية لفرض التأثير، ويتم ذلك من

خلال المراسم الدينية والشعارات والقشور المغلفة ومن المفارقات على ذلك ما وجد على باب سجن تدمر:

"تصدم العين لوحة حجرية فوق الباب مخططة بالأسود النافر ((ولكم في القصاص حياة ياأولي الألباب (البقرة:179)))"[33] كأن لسان الحال يقول إن من يخالف السلطة المتماهية مع الدين سينال عقابه وفق معطيات الدين نفسه لكن عن طريق الخليفة السلطوي في الأرض:

"الرقيب يهدد ويتوعد لم نأت بكم من الشوارع جرائمكم جاءت بكم إلينا جنيتم على أنفسكم وعلى عائلاتكم ستلاقون جزاءكم العادل لقاء ما اقترفتموه من عمالة وخيانة للوطن ثم حرمهم من الحياة مستشهداً بقول الرئيس قائد المسيرة (لا حياة في هذا العصر إلا للتقدم والاشتراكية) ستخرجون من هنا إلى القبر لا مكان غيره، ثم ودّعهم العسكر بالخيزرانات والسياط "[34]

في الشاهد السابق نلاحظ في ملفوظات السجان المزج بين الدين والوطن والسلطة والربط بين أقوال السلطة والعواقب الدينية للقصاص العادل لطرح التماهي واستجلاب المشروعية وتغليف الفكر بالشعاراتية المزعومة التي مللناها وسئمنا زيفها طوال سنين وسنين:

"وأمام مشهد المتألمين والصارخين والمصابين صرخ أحد الجلادين (الله أكبر والنصر للشرطة العسكرية) كان الجلادون يضربوننا بعنف ودموية وقسوة مرعبة ولا ندري لهذه الأفاعيل سبباً وتأول بعضهم أن مدير السجن قد حلم ورأى مناماً سيئاً"[35]

إنّ استحضار الشعارات الدينية الزائفة والمحوَّرة يبرز في كثير من الشواهد التدمرية، وبنظرنا السطحي والعميق نلاحظ المفارقة بين ما يفعلونه وما ينص عليه الدين الذي ينادون به في الظاهر:

"لمحت على الأرض كسرة خبز. دفعتها برجلي وأنا منحن إلى جانب الساحة بعيداً عن الطريق خوفاً من تطأها أقدامنا لمحني أحد الرقباء جن جنونه كيف تدوس نعمة الله!!؟

راح يدوسني ويرفش قدمي ببسطاره قلت وأنا أتأوه كسرة الخبز هذه نعمة الله وأنا هل أكون نقمة مثلا؟؟! تغضب لأني أزحت الكسرة برجلي رافقاً بها ولا يخالجك الشعور إياه وأنت تطبع كامل فرزات بسطارك على وجهي ألست أنا أيضاً نعمة الله؟؟ هذا الحوار دار في عقلي لم تخرج كلمة واحدة منه إلى مسامع الرقيب "[36]

في المونولوج السابق الخائف يتم طرح اللامنطقية العبثية عند السجان التدمري التي تسمح له بقتل إنسان ولا يهون عليه المساس بقطعة خبز لأن هذا حرام دينياً. "إنها شخصيات مليئة لها رغبات ونزوات ينتابها التردد وتقع فريسة للحيرة"[37] بين فطرتها وما روضت عليه.

أي شرع أو قانون يحكم أهواء السجان التدمري وبأية لا منطقية يسير سلوكياته؟ إن دافع الخوف الشديد على منطلقه ذي الشرعية الهشة لا معيار يحكمه سوى معيار القوة :

"- أنا.. أنا أتهدد !! سأحولها إلى جهنم... شعرة واحدة يروح ألف مجرم مقابلها

ثم صاح بصوت شديد الاحتقان:

-ولا كلاب.. مجرمين.. انتو لسا مابتعرفوني منيح..والله لادبحكن دبح الغنم بعدها صاح بمجموعة من الشرطة واقفة بينه وبين السجناء:

-زيحوا هيك ولا

أصوات طلقات مسدس متتابعة، انكمشت على نفسي لدى سماعها وخبأت رأسي أمام صدري، وبسرعة فائقة خرج المقدم يسحب وراءه رتلاً من عناصر الشرطة وأغلق الباب.

أربعة عشر قتيلاً بأربع عشرة طلقة هي كل مايحويها مخزن مسدس المقدم على مايبدو.[38]

ميزان القوى غير متوازن، والذات الفردية تبحث عن آلية وطريقة لتعي فيها ما يحدث في هذه المأساة الجماعية، فتقوم بتبنّي فكر معين، تؤمن به، وتتبناه، وتعبر عنه

من خلال لغة روائية خاصة توضح الاتجاه المضموني المتحكم بتعبئة الشخوص على شكلها المتمظهر في الرواية ليتضح للقارئ البعد الازدواجي المفارق بين المرئي والباطني وكيف تكون إشكالية التلاقي بين الهدف الشعاراتي وقمع المحقق الفعلي له:

"دعوكم من كل هذا الكلام الفارغ ... بلا قانون بلا بطيخ ... حين يكون ظالمك وحشاً فلا كلمة إلا للسلاح ونحن بلا سلاح.. إنهم سيقتلوننا بالأحذية كما تسحق الصراصير "[39]

إن إحساس التبعية والانقياد والسلوك الأعمى في سبيل القضية والقيمة السامية شكل معتقداً عند السجان يظهر في صورة مطورة متأتية من الصلة المكانية المباشرة والوسط العملي المحيط، فيتسع مدى دائرة التأثير، وتتحول المشاعر من تأنيبية رادعة إلى حماسية عدوانية متفانية تأخذ مظهر التشفي بعد تحقيق الانتصار وكسر هالة مقاومة الآخر، وبذلك ينشأ الارتباط الصميمي الدافع إلى المنحى الإلزامي السالخ لإنسانية السجان المنتزع مبادئه منه لتكون المراحل التي يمر بها تسلسلاً هي:

1- ترويض الإنسان بشكل روتيني ليؤمن بأبوبية السلطة، ومشروعيتها.
2- وجود الرقيب وزرع هاجس الخوف وجعل المباحثية سمة الحياة الاجتماعية.
3- التربية على العنف الموجه ضد العدو.
4- الربط بالقضية بإسباغ المشروعية وتحاشي تأنيب الضمير والشعور بالذنب.
5- تماهي السلطة مع القضية وربطها مع الدين كما أُدْلِج.
6- اكتساب امتيازات واتساع صلاحيات وتجنب مصير كارثي.

إذاً "ما يجري لتشكيل سلوك الناس في نظم الاستبداد والطغيان بحيث تخضع لتوقعات السلطة وتستجيب تبعاً لرغباتها وتتوجه نحو أهدافها المرسومة هو نوع من الترويض للإنسان يخضع للمبادئ والتقنيات نفسها مع فارق في المستوى بالطبع فترويض الحيوان يتوقف عند سلوكه الحركي لأداء مهام ووظائف مطلوبة أما ترويض الإنسان في هذه الحالة فيتجاوز السلوك الظاهري والحركي وصولاً إلى تشكيل الإدراك والأفكار والقناعات والعواطف بحيث يمثل امتلاك الإنسان من الداخل وعلى مستوى الوعي الذاتي

والخبرة المعيوشة أعلى مراحل التحكم "[40] وهذا الترويض الإنساني لا يقتصر في بداياته على السجان بل يبدأ في مراحله الدنيا بشكل شامل لكل أفراد الشعب من خلال زرع معتقدات نفسية ترافق الإنسان منذ الولادة وفي كل تفاصيل حياته مروراً بالمنهاج الدراسي والثقافة المجتمعية والعرف الراسخ والإعلام المؤدلج الخاضع لأجندة ممنهجة كل هذا يسهم في تشكيل التكوين النفسي المرسوم للإنسان المخدر والمسير بأفكار لم يتجرأ يوماً إلا على الإيمان الإلزامي بها وإلا كان خائناً عدواً للوطن . وحين تكمل فئة من الناس طريقها لتمارس الواجب الوطني في الدفاع عن الوطن بصورته المتماهية مع السلطة كما ذكرنا آنفاً.

هناك خوف دائم تعاني منه شخصية السجان، ولو تصفحنا الروايات التدمرية في سياقاتها التاريخية والاجتماعية لأشارت إلينا مئات الأسباب بأيديها، ولعل أبرزها هشاشة القاعدة الشعبية الناتجة عن الهوة بين السلطة والمواطن "فحكم الشعب بالشعب بالشعب وللشعب تنتفي منه نوايا ونزعات التسلط الفردي، والتحكم في رقاب المواطنين ومصادرة التفكير، وقمع الرأي المخالف، وأول أسس الحرية السياسية حرية الرأي والتعبير. والتضييق على ما يسمى بالآراء الخطرة أو الضارة أو الهدامة. ثم ما تلبث السلطة وقد تعودت ألا تنتقدها الآراء المعارضة في الخطوط الأساسية لسياستها أن تضيق ذرعاً بما يوجه إليها من نقد حتى في الأمور الجزئية ثم لا تلبث أن تذهب خطوة أبعد لتمنع حتى مؤيديها من حرية التأييد على طرائقهم المختلفة، ليصبح التأييد مجرد ترديد لأقوال صاحب السلطة:[41]

"انخلع الباب بأقدام العساكر. هجموا باتجاه المهجع، وصاح أحد الرقباء العشرة:

- مهجع 34 على الحيط انت وياه...

وقفنا في أماكننا كفئران مذعورة، درنا بوجوهنا جهة الجدران، وأيدينا معقوفة خلف ظهورنا. تقدم (أبو نذير)، عرفت أنه هو من صوته، ومشى خلفه عدد كبير من الحرس والعساكر. كان يشتم ويرغي ويُزبد ويتوعد ويهدد:

- والله لخلي جسمكن مصافي...
- ....!!!
- والله لنسيكن حليب أمكن...
- ...!!
- أنا؟!!!! أتهدد...
- ....!!!

وفي لحظة خرساء. سكت الجميع، وانقطعت الأنفاس، وجمدت حركة الكون، وتخلّى البشر عن كينونتهم لصالح الموت. طاف شبحه بالمكان. أعرف أنه موجود من رائحته؛ رائحته باردة ثقيلة ونفّاذة. ولونها الأزرق الجامد يغطي كل مساحة مرئية ممكنة. انقطع الصوت إلا من أقدامه التي استعارها (أبو نذير) منه في تلك اللحظة. خطت هذه الأقدام باتجاهي. كان ظهري كالبقية لا يزال مكشوفاً للموت، ووجهي مغلقاً باتجاه الحائط. وأذناي؛ أذناي فقط تعملان في كافة الاتجاهات. سمعت صوت أنفاس (أبو نذير) الكريهة تلف وجهي، أخرج مسدسه، سحب (الأقسام)، وصوب باتجاه الرأس... أسمع ذلك تماماً... حف أزيزها أذني ولفني بدوار كدت أسقط بسببه مغشياً علي. ودوّت الطلقة الأولى فانفجر الدماغ وسال مع الدماء على الأرض كأنه لبن مخثّر شابته حمرة. صمد الجسد ثلاث ثوان، مرّت كأنها ثلاثة دهور، ثم هوى الجسد دون حراك؛ كان جسد الذي يقف إلى جانبي. متّ في تلك اللحظة ألف مرة، وارتعشت مثل ذبابة، وبكيت في أعماقي مثل طفل. لم يكتف الموت المستتر في جثة (أبو نذير) بجثة واحدة. تقدم بخطواته الثقيلة مرة ثانية، تجاوزني...

نعم تخطاني الموت... وهو مقبل على آخر سواي... أأفرح أم أحزن؟! أأطلق زفرة الخلاص أم أحبس شهقة الفناء؟! خطوات أخرى ثم انقطاع تام للصوت مرة أخرى، ثم انفجار له في طلقة جديدة من الموت القابع في المسدس المتحجر، ثم جثة ثانية... ظلت الخطوات تنأى والموت يقترب... أسقط في طريقه ثماني جثث وخرج كأن الأمر مجرّد تصويب أهداف في مرمى عسكري ذات يوم تدريبي!!

لففنا جثث زملائنا الثمانية في بطانيات، وكان السؤال الذي اعتدنا على سماعه منهم في مثل هذه الظروف طيلة هذه السنوات:

- شوفيه... ليش هدول فطسوا؟!(يسأل الرقيب رئيس المهجع)
- ما في شي... اتزحلقوا بالحمام... وقعوا على راسن...
- الله لا يرحمن... فطيس..!!" [42]

فلا الشعب يُحْكَمُ بالشعب، ولا للشعب، والفئات التي آثرت مكاسبها على مصلحة الطبقة الشعبية استخدمت قوتها وتحكمها بالدفة العسكرية وثروات البلاد لتفرض قبول النظام القمعي حتى إن "الدولة تطغى على التكتلات الحزبية بأحد شكلين، فإما أن تلغي الأحزاب كلها، وتمنع التكتل الحزبي، وإما أن تفرض على الشعب تنظيماً واحداً أو حزباً واحداً مدعية أن هذا التنظيم يمثل الأمة كلها"[43] حتى الحزب المسموح يأخذ الطابع الشعاراتي على مستوى القول فقط، واضحة فيه "أزمة الفارق بين القول والعمل"[44]، فلو طبقت مبادئ الوحدة والحرية والاشتراكية التي تؤسس لهذا الحزب لكُنّا في أحسن حال، لكن تطبيقها سيتعارض حكماً مع المصالح الفردية والمكاسب والفئات التي تحتكرها فئة معينة استولت على المناصب واحتكرتها واستملكتها.

"والنظام القمعي، شاء أم أبى، لا يريد أن يرى البشر أو يتعامل معهم، ولا يهمه أن يتطور البشر ولا أن يظل البشر بشراً، يريد أن يحول الناس جميعاً إلى هذين النوعين من الحيوانات: الأرانب أو الفئران المذعورة التي يتم تصنيعها على أيدي الحيوانات الأخرى التي هي الذئاب الشرهة للدم، أناس عبارة عن جلود وآخرون عبارة عن سياط، والطرفان من دون إرادة ومن دون حرية ومن دون كرامة"[45] لذلك فإن الصوت الروائي للسلطة يأخذ مستويات عديدة ويختلف باختلاف الحدث وتنامي الشخصيات والدور الوهمي (أبوبية السلطة) حدث ثابت لا يمكن المساس به، يستمد استقراره من القبضة القمعية المحكمة التي يمكن استقراؤها في طيات الروايات التدمرية متمظهرة في "السلطة التي تعد نفسها أباً لكل الناس ،وأنها تملك كل ما يملكون، وحقها في التصرف بتفاصيل حياتهم أكبر من حقهم هم أنفسهم"[46] وثبات المظهر هو ثبات القمع و امتداده

واستمراريته وإظهار قيمه يتم عن طريق جدلية الأنا والآخر باختلاف زاوية الرؤية والسجان هو صوت السلطة في الرواية والصوت الضدي للسجين يعكس صداه على اعتبار "وعي الروائي للمرحلة الراهنة والمستمرة لا يتجسد في الموضوعات فحسب وإنما يتجسد بشكل أكثر دقة في وعيه ومعرفة المحاور المركزية للمرحلة وامتداداتها في المرحلة الأخرى، وبالتالي لا تطرح هذه المحاور في الرواية نفسها بشكل مباشر وحاد وهي تخضع لاعتبارات وضرورات ليست بعيدة عن جوهرها ومسارها وليست معزولة عن رواية الروائي نفسه ومستلزمات التعبير عن المواقف والرواية وليست شخصية السجان إلا أداة توضيح واستخلاص ومفتاحاً لتوثيق مرحلة سلطوية تاريخية اجتماعية كان لها أثر واضح مغيب في ذواتنا ووعينا.

طبيب السجن:

تعد شخصية طبيب السجن من الشخصيات التي تطرقت لها روايات سجن تدمر، كونه يؤدي وظيفة لا بد لها من الظهور في خضّم سياسات التعذيب والأمراض المنتشرة التي تحتاج بالضرورة إلى طبيب يقدم خدماته بشكل دائم، لكن الطبيب في سجن تدمر له صورة أخرى غير التي عهدناها كصاحب مهنة إنسانية مقدسة، يخضع لضوابط قسمه الذي أداه ويعالج من يحتاج المساعدة أياً كان، وقد عرضت الروايات التدمرية لشخصية الطبيب على منحيين الطبيب السجان والطبيب السجين وسنعرض للطبيب السجان إذ إن الطبيب السجين يندرج في بحث السجين.

الطبيب السجان:

عرضت روايتا "القوقعة"، و"يسمعون حسيسها" شخصية الطبيب بشيء من التفصيل، فتحدّثتا عن أبعاد الشخصية الجسمية والنفسية والفكرية والاجتماعية، وقد تحدثت رواية القوقعة عن طبيب السجن الريفي الفقير البسيط الخجول، المعامَل من قبل أقرانه المدنيين (أبناء المدينة) في الجامعة بفوقية واحتقار، أحب زميلة له في الجامعة، ونظراً لوضعه السابق بقي حبه صامتاً لمدة ثلاث سنوات إلى أن انتهز فرصة اجتمعا بها كلاهما بشكل منفرد في المخبر، فصارحها بحبه، لكنها ردت عليه بطريقة لم يتوقع درجتها من العنف

والاحتقار والازدراء، إذ كانت من عائلة مدنية محافظة ذات سطوة وغنى، ولم تكتف بذلك فذهبت إلى رئاسة الجامعة لتشتكي إليها وأخبرت أهلها بما حدث، وقد تسبب ذلك بمعاقبته من قبل الجامعة وملاحقته بالسلاح من قبل أهل الفتاة. وبعد فترة من تخفيه حضر إلى الجامعة وتابع دراسته منطوياً على نفسه يعامل من قبل الجميع على أنه محط استحقار وسخرية. طبيب السجن هذا بدأ يجهز على زملاء دفعته الذين شهدوا (وصمة عاره) الواحد تلو الآخر في سجن تدمر عند معرفته بنزول بعضهم هناك:

"اليوم في 20 آذار، قبل عيد الربيع بيوم واحد، كان موعد هذين الطبيبين مع زميلهما. أخرج عناصر الشرطة الطبيبين وأغلقوا الباب، أسرعت إلى بطانيتي والثقب، رأيت الطبيبين يسوقهما عناصر الشرطة إلى أمام طبيب السجن الذي يقف على مبعدة أربعة أو خمسة أمتار من المهجع. يقف الطبيب عاقداً يديه على صدره وهو يبتسم. رحب بهما: أهلاً وسهلاً، ثم التفت إلى عناصر الشرطة وأمرهما:

- روحوا خلوكم جنب البلديات.

(.....)

- ايه... هلق عم تقولوا لحالكم: سبحان مغير الأحوال... طيب وأنا كمان بقول هيك... بدي اطلب منكم طلب، مين منكم بدو يجوزني اخته؟

لم يجب الطبيبان بشيء، رأساهما منكسان قليلاً، تابع طبيب السجن:

- ليش ساكتين؟!... شو يا عدنان... أنا عم أخطب أختك على سنة الله ورسوله، الزواج عيب شي؟.
- بس أنا ما عندي أخت، والحمدلله.

هنا قال طبيب السجن لعدنان شيئاً لم أسمعه. سادت فترة صمت ثم التفت إلى الطبيب الآخر، وقال:

- طيب... وأنت يا زميل سليم كمان ما عندك أخت؟.
- نعم...عندي أخت.
- طيب خطبني اياها على سنة الله ورسوله.

- الزواج قسمة ونصيب، ونحن هلق بوضع مابيسمح بنقاش هيك أمور، وأولاً وأخيراً أنا ماني ولي أمرها.
- هذا أسلوب تهرب...

اقترب منه وبصوت أقوى:

- وإلا شايف أنه نحن مو قد المقام، انتو ناس أغنياء وأكابر، نحن فلاحين، مو هيك؟

اقترب منه ولوّح بيده أمام وجهه وبصوت حاد صاح وهو يصر على أسنانه:

- ولك شوف.... افتح عيونك وطلع لهون، شايف هذا البوط، بوطي أحسن منك ومن أختك وأهلك وكل عشيرتك وطايفتك... ولا كلب.

ثم التفت إلى حيث البلديات وصاح:

- بلديات... تعوا لهون ولاك... خذوهم ع نص الساحة.

سحب البلديات الطبيبين. ومشى وراءهم وهو يصيح:

- هدول ناس أكابر... يعني فوق...فوق، وهلق نحن بدنا نطالعهم كمان لفوق أكثر وأكثر... يالله لشوف.

(.....)

تركوهما وسط الساحة في حالة استلقاء أبدي. غادر طبيب السجن، يحيط به موكبه، الساحة.

مجموع ما قتله طبيب السجن من زملاء دفعته أربعة عشر طبيباً"[47].

وكي نلاحظ التقاطع نعرض للطبيب في رواية يسمون حسيسها:

"كان طبيب السجن (يونس) زميلاً (لزهدي) في الجامعة، تسابق قلباهما أيهما يفوز بالحبيبة. اختارت الحبيبة (زهدي) دون تردد. وتركت لأجله كل من عداه. ملأ الحقد قلب

(يونس) وظل جرح إخفاقه يقطر سماً إلى أن تواجها هنا. ولكن من كان منبوذاً خلف أسوار هذا السجن، صار سيداً مطاعاً داخله. خثر الحقد روح (يونس) بالثأر. ملأ كل خلاياه بالانتقام. حانت الفرصة. لن يضيعها. ولن يستنفدها مرة واحدة. ظل طوال شهرين يتلذذ بمنظر (زهدي) وهو يعذب أمام ناظريه. كان يطلب من الجلادين أن يأتوا به إلى عيادة السجن، ويجلس إلى مكتبه ويطيل النظر بعينين تفيضان قطراناً وترتويان من منظر الدماء التي تسيل من جسد غريمه (زهدي)"[48][49]

لاحظ في المقطعين السابقين أزمة الكرامة المفقودة بسبب المرأة، وعلى اعتبار أن "السادية عند الرجل هي نتيجة الإحباط الذي يعانيه بسبب المرأة"[50] حيث يمس هذ الصراع رجولة الرجل وهي الأمر الذي لا نقاش فيه أو تفاوض عليه، فيحاول رد اعتبار ذاته بأي طريقة كانت، والطبيب هنا شخص تعرض لأزمة سببها المرأة وصنع كنمط بشري في سجن تدمر، فتمازجت عقد حقده المكبوت في الماضي (نتيجة فقر أو وضع اجتماعي، أو رفض له وتفضيل غيره عليه) مع ساديته الوليدة، واسترجع صورة عجزه في الماضي وكونه الحلقة الأضعف في معادلة تحلها امرأة، لذلك قرر استعادة توازنه وأناه ورجولته المجروحة أمام الأطراف التي كانت شاهدة على تلك المعادلة أو كانت طرفاً بها ، ففعل ما فعل.[51] "إن في ذلك تشفياً واضحاً وإن فيه تفريغاً للعدوانية المتراكمة نتيجة القهر المزمن الذي تعرض له هؤلاء قبل أن يحتلوا مناصبهم كأدوات للسلطة. إن التلذذ في مهانة الإنسان المستضعف والبطش به تحت ستار ممارسة وظيفة الحفاظ على الأمن يشير إلى المرض العلائقي الذي ينخر بنية العالم المتخلف"[52]، وليس هذا الستار إلا قشرة هشة تهدف إلى تغطية أفعاله بغطاء مشرعِن يبرر من خلاله كل التصرفات ذات الطابع الشخصي البحت.

نهاية، تعمد السلطة المتمثلة بالسجان إلى فرض صنوف العذاب بطرق مبتكرة مدروسة تستهدف كافة الجوانب الجسدية والنفسية التي تمس صلب العقيدة ومستقر المبدأ، هادِفة إلى عدة أمور، أهمها:

1- تقزيم الإنسان على الجوانب كلها، بحيث يصبح كتلة من التناقضات، وهذا الخلل التوازني ينعكس على شخصيته بكليتها، وهنا تبدأ مرحلة منهجة التحول القيمي، وتغيير الهدف من الحياة والمغزى من المنطلق أو المبدأ.

2- طمس إنسانية السجين، فالسلطة مطلقة الصلاحيات وكل ما أمامها مباح، تتصرف وفق هواها وكيفما أرادت باعتباطية لا حدود لها ومزاجية عبثية. وعندما يعطى شخص ما سلطة مطلقة بدون أي ضابط يستبد لا محالة – (فالسلطة المطلقة مفسدة مطلقة)- ونتيجة استبداده يبدأ بالتفنن وابتكار أساليب تعذيبية من تجويع وتعطيش وعدم تأمين العلاج لحالات ساخنة تستوجب الفورية في الاستجابة، وغيرها من السلوكيات التي تفرض حروباً جسدية نفسية على السجين.

3- تفريغ الإنسان من قيمه ليصبح جلّ ما يفكر به هو كيف يتخلّص من أهوال العذاب التي تثقل عاتقه، والبحث عن مبرراتها أو سبل الخلاص منها، ويتصف البحث باللاجدوى بسبب اللامنطقية والتعسفية في الإجراءات المتبعة والروتين المفروض إذ إنهما –أساساً- يهدفان إلى تغيير المسار الإنساني لتفكير السجين.

4- التشكيك في ميزان القوى العقائدي ودفع السجناء إلى التفكير بأن ما يدافعون عنه باطلٌ و لو لم يكن كذلك لما انهالت الويلات، وانصب جحيم العذاب دون معجزة تمنعه أو مخلِّص ينهي تلك المأساة الكبرى.

5- تفريغ الحقد والأمراض النفسية العائدة إلى أسباب اجتماعية مختلفة وتناميها نتيجة الوجود في وسط موبوء مطلق الصلاحية يبيح إهانة لآخر أو التحكم به بحسب الأهواء والمزاجية.

6- التكوين الاجتماعي التأصيلي والمنطلقات الفكرية للممارسات السلطوية التي تعتمد البطش والظلم والاستعباد أساساً لها، وتسلك في سبيل تحقيق مبتغاها طرقاً لا إنسانية ذاتية مطلقة.

7- الاستيلاء على كل موارد السجين ومقتنياته حتى جسده، وعلى كلّ شيء يخصّه ونظرات عينيه وسلوكه من خلال تنمية المنعكسات الشرطية عند

السجين، واستغلاله دون وجود مانع أخلاقي، أو رقابة عادلة قانونية فلا شرع يؤمنون به ليردعهم ولا قانون يأتمرون بأمره كي ينصاعوا له، قانونهم الوحيد هو: السلطة هي الآلهة والشرع والقانون.

المصادر والمراجع:

1- زيجمونت باومان، الحداثة والهولوكوست، تر: حجاج أبو جبر-دينا رمضان، مدارات للنشر والأبحاث، القاهرة، مصر، ط1، 2014، ص262.
2- مصطفى خليفة، القوقعة، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص89-90.
3- فوّاز حدّاد، السوريون الأعداء، دار الريس للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2014، ص165.
4- أيمن العتوم، يسمعون حسيسها، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 2013، ص205.
5- المصدر السابق نفسه، ص124.
6- مصطفى حجازي، الإنسان المهدور، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005، ص153.
7- خالد فاضل، في القاع ، جريدة سوريانا، ع65، 16-12-2012، ص75.
8- المصدر السابق نفسه، ص52.
9- غالي شكري، المثقفون والسلطة، دار أخبار اليوم، القاهرة، ط1، 1990، ص172.
10- شريف الراس، الورطة، بغداد، العراق،ط1، 1986، ص32.
11- أيمن العتوم، يسمعون حسيسها، ص202.
12- مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي (مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط9، 2005، ص136.
13- أيمن العتوم، يسمعون حسيسها، ص174.
14- خالد فاضل، في القاع، ص147.
15- فواز حداد، السوريون الأعداء، ص195.
16- أيمن العتوم، يسمعون حسيسها، ص244.
17- مصطفى خليفة، القوقعة، ص142.

18- ممدوح عدوان، حيونة الإنسان، دار ممدوح عدوان للنشر، دمشق، سوريا، ط2، 2007، ص33.
19- مصطفى حجازي، الإنسان المهدور، ص13.
20- مصطفى خليفة، القوقعة، ص16.
21- أيمن العتوم، يسمعون حسيسها، ص97.
22- مصطفى حجازي، الإنسان المهدور، ص155.
23- أيمن العتوم، يسمعون حسيسها، ص140.
24- المصدر السابق نفسه، ص42.
25- عائد من جهنم، علي أبو الدهن، جمعية المعتقلين اللبنانيين في السجون السورية، بيروت، لبنان، ط2، 2012، ص115.
26- براء السرّاج، من تدمر إلى هارفورد، مذكرات الكترونية،2011، ص55.
27- ممدوح عدوان، حيونة الإنسان، ص71.
28- مصطفى حجازي، الإنسان المهدور، ص155.
29- خالد فاضل، في القاع، ص118.
30- سمر روحي الفيصل، السجن السياسي في الرواية العربية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ط1، 1983، ص171.
31- أيمن العتوم، يسمعون حسيسها، ص140.
32- المصدر السابق نفسه، ص105.
33- مصطفى خليفة، القوقعة، ص16.
34- فواز حداد، السوريون الأعداء، ص166.
35- خالد فاضل، في القاع، ص118.
36- أيمن العتوم، يسمعون حسيسها، ص145.
37- المغترب الأبدي، تحرير وتقديم أحمد خريس (يتحدث مع غالب هلسا)، دار أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2004، ص129.
38- مصطفى خليفة، القوقعة، ص43.
39- شريف الرأس، الورطة، ص19.

40- مصطفى حجازي، الإنسان المهدور، ص88.

41- أديب اللجمي، الحرية ومشكلاتها في البلدان المتخلفة، مجلة المعرفة، سوريا، ع39، آذار، 1965، ص138.

42- أيمن العتوم، يسمعون حسيسها، ص288، 289.

43- أديب اللجمي، الحرية ومشكلاتها في البلدان المتخلفة، ص139.

44- سمر روحي الفيصل، السجن السياسي في الرواية العربية، ص186.

45- ممدوح عدوان، حيونة الإنسان، ص107.

46- أيمن العتوم، يسمعون حسيسها، ص24.

47- مصطفى خليفة، القوقعة، ص65-66.

48- أيمن العتوم، يسمعون حسيسها، ص126.

49- انظر: المصدر السابق نفسه، ص127، انتهى الحال بالطبيب زهدي أيضاً إلى الموت على أيدي الجلادين بأمر من الطبيب يونس، وبطريقة وحشية جداً.

50- ريكان إبراهيم، النفس والعدوان، دراسة نفسية اجتماعية في ظاهرة العدوان البشري، دار الشؤون الثقافية، بغداد، العراق، 1987، ص175.

51- انظر: شريف الرأس، الورطة، ص41-42في الحديث عن السجان أبي نفخة وفشله مع المرأة وعجزه أمامها.

52- مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي (مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المهدور)، ص131.